

تاريخ القبول: 2022/03/12

تاريخ الإرسال: 2021/11/03

تاريخ النشر: 2023/02/16

## أشكال تلقي نظرية النظم في الدرس اللغوي العربي الحديث Forms of receiving systems theory in the Arabic language lesson

أبو العلاء إسحاق<sup>1</sup>، رضوان جنيدي<sup>2</sup>جامعة تامنغست (الجزائر)، khaledtam2017@gmail.com<sup>1</sup>جامعة تامنغست (الجزائر)، salimdjenidi@yahoo.fr<sup>2</sup>

مخبر العلوم والبيئة تامنغست

### الملخص:

تعدّ نظرية النظم التي اكتمل تأسيسها على يد عبد القاهر الجرجاني من أكثر القضايا التراثية التي شغلت البحوث اللغوية والنقدية العربية الحديثة، وقد تباينت أشكال تلقيها بين التعريف والتأصيل وبين الممارسة والتطبيق، وصولاً إلى دراساتها في ضوء البحوث اللسانية واللغوية العربية الحديثة.

ونسحاول باعتماد آليات الوصف والتحليل واستخلاص النتائج تسليط الأضواء على أشكال تلقي الباحث العربي الحديث لها من خلال المنجز العربي اللغوي والبلاغي الحديث، وذلك بالإجابة عن السؤالين التاليين: كيف تلقى الدارس العربي نظرية النظم؟ وما الخصوصية المميزة لكل شكل من أشكال التلقي؟  
الكلمات المفتاحية: مفهوم النظم، نشأة النظم، الإعجاز القرآني، التلقي العربي، الدرس اللساني.

### Abstract:

The theory of systems that was completed by Abdul Qaher Al-Jurjani is one of the most traditional issues that

preoccupied modern Arabic linguistic and critical research, and its forms varied between definition and rooting and between practice and application, up to its studies in the light of modern Western linguistic and linguistic research.

By adopting the mechanisms of description, analysis and drawing conclusions, we will try to shed light on the modern Arab researcher's reception of it through the modern Arabic linguistic and rhetorical achievement, by answering the following two questions: How did the Arab student receive systems theory? What is the special characteristic of each form of receiving?

**Keywords:** the concept of systems, the emergence of systems, the Quranic miracle, Arabic reception, the linguistic lesson.

المؤلف المرسل: أبو العلاء إسحاق، الإيميل: KHALEDTAM2017@GMAIL.COM

## 1. مقدمة:

شكلت نظرية النظم معلما بارزا من معالم قضية اللفظ والمعنى، التي مثلت إحدى القضايا الكبرى في الدراسات العربية البلاغية، وقد جاءت نتاجا لجهود الدارسين قديما لتحديد الأسباب التي يرجع إليها الفضل في إعجاز القرآن الكريم، مما أدى إلى ظهور قضية اللفظ والمعنى، وأبيهما يرجع إليه الفضل في إعجاز القرآن الكريم، الذي تحدى به الله سبحانه وتعالى صنائيد قريش وهم أهل فصاحة وبيان.

أسهمت نظرية النظم منذ اكتمل تأسيسها على يد عبد القاهر الجرجاني في إثراء بحوث الدارسين العرب مشاركة ومغاربة، والذين حملت بحوثهم أشكالا متباينة من تلقي هذه النظرية، قد تدفعا إلى تقسيمهم إلى فرق ثلاثة حسب شكل التلقي، ففي الوقت الذي اكتفى الفريق الأول منهم بالتعريف بالنظرية والتأصيل التاريخي لها، قصر الفريق الثاني جهوده على تطبيق ما حوته النظرية من إجراءات على مباحث

النحو والبلاغة والعروض والنقد الأدبي كما أسس لها علماء اللغة والنقد العرب القدماء، وكثيرا ما زوجوا بين التعريف والتأصيل من جهة وبين تطبيق أصول النظرية ومبادئها من جهة أخرى، ونقل الفريق الثالث نظرية النظم من إطارها العربي تنظيرا وممارسة إلى عقد مقارنات بينها وبين نظريات غربية ومفاهيم أجنبية أسست لعلوم حديثة مثل النحو الوظيفي ونحو النص والأسلوبية ولسانيات النص والحجاج والتداولية وغيرها من الفروع اللغوية واللسانية الحديثة.

وقبل استعراض أشكال تلقي نظرية النظم في الدرس العربي الحديث والمعاصر سنستعرض بعض المفاهيم التي وضعها الدارسون قديما وحديثا لمفهوم النظم، مروراً بأهم المحطات التي مرت بها النظرية قبل عبد القهار الجرجاني منذ الحديث عن مبدأ الصرفة مروراً بالجاحظ والباقلاني والرماني والخطابي وغيرهم من الدارسين القدماء، وصولاً إلى القاضي عبد الجبار لثُحطّ الرجال عند مؤسس النظرية عبد القاهر الجرجاني، ومن ثم تفصيل القول في كاتب (نظرية النظم أصولها وتطبيقاتها) لمسعود بودوخة، الممثل لشكل من أشكال التلقي الجزائري لنظرية النظم.

## 2. مفهوم النظم:

لم تحد إشكالية ضبط مفهوم مصطلح (النظم) وتحديده عن غيره من المصطلحات التي اختلف الدارسون في تحديد مفاهيمها وضبط حدودها، وقد يرجع ذلك إلى اختلاف مرجعياتهم وتعدد منطلقاتهم التي انطلقوا منها لتحديد مفهوم نظرية النظم، يضاف إلى ذلك تداخلها مع جملة من العلوم اللغوية والبلاغية ومع مباحث النقد الأدبي، ودون أن نغفل محاولات إيجاد نقاط التقاطع بينها وبين العلوم اللغوية واللسانية الحديثة، وقد يرجع هذا التعدد والتباين في مفاهيم نظرية النظم إلى الدارسين أنفسهم والسياق الذي درسوا فيه النظرية، وسنحاول استعراض أهم الأقوال التي تحدثت عن مفهوم نظرية النظم، محاولين إبراز ماهية نظرية النظم والمقصود بها.

إن محاولة استقراء حضور معاني مصطلح (النظم) أو ما يوحي بمعناه أو يحيل إليه في أبحاث الدارسين القدامى تضعنا أمام اختيار الشريف الجرجاني في كتابه (التعريفات) أحد المعاني اللغوية لمصطلح النظم، وهو التأليف، حيث يقول: إن النظم: "هو تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل"<sup>1</sup>، فالنظم عنده هو التأليف وفق شروط محددة وهي: ترتيب المعاني في النفس، تناسب دلالة الكلمات والجمل مع العقل والمنطق، وذلك باختيار الكلمات المناسبة واحترام القواعد والنظم المألوفة والمستعملة في كلام العرب.

وقدّم الشريف الجرجاني تعريفاً آخر للنظم يستند إلى الألفاظ، إذ يقول: "وقيل الألفاظ المترتبة المسوقة المعبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل"<sup>2</sup>، فمن خلال التعريفين السابقين نجد مدار فكرة النظم حول التأليف وضم الكلمات بعضها إلى بعض وفق قوانين عقلية ومنطقية، وهو ما أكد عليه في كلا التعريفين بقوله: "ما يقتضيه العقل".

وحمل مفهوم النظم دلالات مختلفة عند عبد القاهر الجرجاني الذي تسمت النظرية باسمه، فقد أورد عدة مفاهيم للنظم في كتابه (دلائل الإعجاز)، حيث يقول في المدخل: "معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"<sup>3</sup>، فما عبر عنه الشريف الجرجاني بالتأليف سماه عبد القاهر الجرجاني بالتعليق.

وقال في موضع آخر: "ليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم"<sup>4</sup>، فيكون الأساس المعتمد هو النحو وأحكامه وما تقتضيه اللغة العربية من سلامة نحوية تأليفاً وتعليقاً، ويضيف إلى توخي معاني النحو وأحكامه بين الكلم مبدأ الترتيب، يقول: "هو أنك ترتب المعاني، أولاً نفسك، ثم تحنو على ترتيبها الألفاظ في نطقك"<sup>5</sup>، وعدّ تأليف الكلام ونطقه يكون للإفصاح عن معانٍ

رُتبت سلفاً في نفس مؤلفها، على أن تراعى معاني النحو وأحكامه عند التأليف وتعليق الكلم بعضها ببعض.

وتتقاطع دلالات مصطلح (النظم) عند عبد القاهر مع دلالات التأليف والنسج والصياغة، ويتحقق الترتيب والتركيب والتصوير والتحرير، يقول: " ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى (الفصاحة) و(البلاغة) و(البيان) و(البراعة) وفي بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد منها فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج، وكما تفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه، وتوضع لك القاعدة لتبنى عليها؛ ووجدت المعلول على أن ههنا نظماً وترتيباً، وتأليفاً وتركيباً، وصياغةً وتصويراً، ونسجاً وتحريراً"<sup>6</sup>، وصولاً إلى تحقق المفاضلة بين الكلام المحققة للإعجاز والتفرد والتميز.

وبالانتقال إلى الدارسين المحدثين، نجد إحسان عباس في كتابه (تاريخ النقد الأدبي عند العرب: نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري) يخصص مبحثاً لعبد القاهر الجرجاني عنوانه بتحديد معنى النظم بالتزام الأوضاع النحوية محاولاً من خلاله الإجابة عن سؤال هو: ما المقصود بالنظم والتأليف - وهما مترادفان في رأي عبد القاهر؟-؛ ثم يجيب عن تساؤله مقرأ أن صاحب نظرية النظم يقرر "أولاً أنه ليس للفظه في ذاتها ولا في جرسها ولا دلالتها ميزة أو فضل أولي، وليس بين أية لفظة وأخرى في حال انفراد كل منهما عن أختها تفاضل؛ لا يحكم على أي لفظة قبل دخولها في (سياق) معين، لأنها حينئذ وحسب ترى في نطاق من التلاوم أو عدم التلاوم، وهذا السياق هو الذي يحدث (تناسق الدلالة)، ويبرز (المعنى) على وجه يقتضيه العقل ويرتضيه"<sup>7</sup>، فالمزية لنظم المعاني لا لنظم الألفاظ من خلال ما يحمل سياق الألفاظ المشكل للمعنى.

ومن خلال حديثه عن قضية اللفظ والمعنى التي شغلت نقاد القرن الخامس الهجري وما قبله يخلص إلا أن عبد القاهر حسم هذه المسألة الخلافية من خلال تأكيده أن "الفكر لا يضع لفظة إزاء أخرى لأنه يرى اللفظة نفسها ميزة فارقة، وإنما يحكم بوضعها لأن لها معنى ودلالة بحسب السياق نفسه، ولهذا كانت (المعاني) لا الألفاظ هي المقصودة في إحداث النظم والتأليف، فلا نظم في الكلم ولا تأليف حتى يعلق بعضها ببعض ويبني بعضها على بعض"<sup>8</sup>؛ ويعيد الاستشهاد بمفهوم النظم عند عبد القاهر ويربطه بمعاني النحو، إذ تحدد مباحثه من تقديم وتأخير وفصل ووصل وإيجاز وحذف وإظهار وغيرها من الفروع النحوية قضية الصواب والخطأ في النظم.

ويربط محمد مندور في كتابه (في الميزان الجديد) بين مفهوم نظرية عبد القاهر الجرجاني والذوق، فبعد أن أكد الجرجاني أن المزية لا تكون في الألفاظ، وإنما تكون في المعنى الذي يجسد الاختيار، ويخلص إلى قوله: "والآن نستطيع أن نفهم كيف أن عبد القاهر كما قلنا في أول مقال عنه قد ابتدأ بنظرية فلسفية في اللغة، ثم انتهى إلى الذوق الشخصي"<sup>9</sup>، ويؤكد أهمية التطبيقات التي أوردها عبد القاهر في شرح نظرية النظم، وما تضمنته من حديث عن رمزية اللغة وردّ المعاني إلى النظم.

ويمثل صالح بلعيد في كتابه (نظرية النظم) مظهراً آخر من مظاهر تلقي العرب المحدثين لنظرية النظم، فقد أورد ما يستشف منه مفهوم النظم في قوله عنه: "وهو ما يقوم على التقليد المأثور المستعمل من كلام العرب باعتباره مقياساً للصواب والخطأ"<sup>10</sup>، فتأليف الكلام ونظمه يكون وفق تأليف ونظوم مألوفة في كلام العرب.

ويركز السيد أحمد خليل في كتابه (المدخل إلى دراسة البلاغة العربية) على القصد من النظم عند الجرجاني، يقول: "وليس القصد من النظم عند عبد القاهر أن ترص الكلمات رصاً، وتراد على مكانها إرادة لا يقتضيه المقام، ولا تدعو

إليه وجوه الحسن والاعتبار، وإنما تتلاقى الكلمات في النطق مترسمة خطى المعاني القائمة في النفس، والتي يريد المرء أداءها إلى غيره لقصد يتحزاه، وغاية يهدف إليها<sup>11</sup>

ومن المحدثين أيضا نجد وليد محمد مراد في كتابه (نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني) انطلق في مفهومه لنظرية النظم مما جاء به الجرجاني، حيث يقول: "النظم هو تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"<sup>12</sup>، ويعلق على مفهوم الجرجاني للنظم بقوله: " فعبد القاهر لا يقصد من النظم إلا تأليف الكلام وفقا لأبواب النحو المختلفة"<sup>13</sup>؛ رابطا دلالات النظم بالتأليف والتركيب مراعيًا ما يقره علم النحو تقديما وتأخيرا وذكرًا وحذفًا وفصلا ووصلا وغيرها من الأبواب.

ويتضح لنا من خلال المفاهيم السالفة الذكر أن مدار مفهوم نظرية النظم يتأسس حول النقاط التالية: ترتيب المعاني في النفس، واختيار الألفاظ المناسبة دلالاتها للمعاني المراد الإفصاح عنها، ثم تأليف الألفاظ وضم بعضها إلى بعض مع مراعاة ما يقتضيه علم النحو.

### 3. نشأة نظرية النظم:

#### 1.3 نظرية النظم قبل الجرجاني:

يرى معظم الدارسين الذي تناولوا نظرية النظم سواء من جانبها التاريخي، أو من خلال ربطها بعلم اللغة أو البلاغة أو النقد أن اكتمال التأسيس للنظرية يعود الفضل فيه إلى عبد القاهر الجرجاني، الذي قصد إلى النظرية قصدا بخلاف إشارات سابقه من الأعلام اللغويين والبلاغيين العرب القدماء، التي نعدها إرهافات وخلافات مهدت الطريق لعبد القاهر ليتم العمل، فينضح على يديه، ويستوي على سوقه، فيؤتي أكلها.

والمتمأل في قضية النظم - وبعيدا عما ذكره بعض الدارسين المحدثين<sup>14</sup> من ورودها عند قدماء اليونان والهنود- يجد أنها كانت بحاجة الى ما يقارب أربعة قرون من الزمن لتتطور خلالها في رحاب المذاهب الكلامية والاختلافات العقائدية من معتزلة وأشعرية وغيرهم، حتى انتظمت في نظرية واضحة المعالم سمّيت باسم عبد القاهر الجرجاني.

وتكاد تجمع أغلب الدراسات على التأريخ لبداية فكرة النظم عند ابن المقفع، يقول حاتم الضامن في كتابه (نظرية النظم): " لعل أقدم إشارة عثرنا عليها في الكتب العربية هي عبارة ابن المقفع التي أشار فيها إلى صياغة الكلام"<sup>15</sup>؛ وذلك ما ذهب إليه وليد محمد مراد في كتابه (نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند الجرجاني) حين أورد " أن أقدم إشارة في الكتب العربية لفكرة النظم وردت عند ابن المقفع"<sup>16</sup>.

وهؤلاء الدارسون المحدثون يستشهدون بقول ابن المقفع في كتابه (الأدب الصغير والأدب الكبير) في إقراره أن الناس لا يبتدعون الكلام ويخترعونه، وإنما الفضل في ذلك إلى ما تعلموه واكتسبوه عن غيرهم بفضل الله العليم الحكيم، يقول: "إذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل أصيل وأن يقولوا قولاً بديعاً، فليعلم الواصفون المخبئون أن أحدهم، وإن أحسن وأبلغ، ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتا وزيرجدا ومرجاناً، فنظمه فلاندا وسموطاً وأكاليل، ووضع كل فص موضعه، وجمع إلى كل لون شبيهه وما يزيده بذلك حسناً، فسمي بذلك صانعا رقيقاً [...].. فمن جرى على لسانه كلام يستحسنه أو يستحسن منه، فلا يعجب إعجاب المخترع المبتدع، فإنه إنما اجتناه كما وصفنا"<sup>17</sup>، ويتبين لنا من القول إشارة ابن المقفع إلى عملية النظم (فنظمه فلاندا وسموطاً وأكاليل) وهي إشارة عامة مطلقة تتعلق بسائر الكلام دون ربطه بما يتعلق بنظرية النظم.



على عكس ما جاء به الجاحظ من بعده الذي تحدث عن النظم في سياق حديثه عن السر وراء إعجاز القرآن الكريم، حيث يقول: " وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق نظمه البديع الذي لا يقدر عليه مثل العباد"<sup>18</sup>، بل وأطلق على بعض كتبه (نظم القرآن).

وتتوالى المحطات التي مهدت لنظرية النظم، ويربط أصحابها بين النظرية وقضية الإعجاز في القرآن الكريم، فجد الرماني (ت386) في رسالته (النكت في إعجاز القرآن الكريم) يشير إلى فكرة النظم في إطار سرده لأسباب إعجاز القرآن الكريم، وسماه التأليف، حيث يقول: "دلالة الأسماء والصفات متناهية، أما دلالة التأليف فليس لها نهاية"<sup>19</sup>، فيحمل مصطلح (التأليف) دلالات (النظم).

أما الخطابي الذي تحدث عن النظم في سياق تعليقه لأسباب إعجاز القرآن الكريم، حين رأى أن القرآن معجز بفصاحة ألفاظه وحسن نظمه وصحة معانيه، يقول في هذا الخصوص: "إنما صار القرآن معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني"<sup>20</sup>، وتبين لنا إشارته في كلامه هذا إلى قضية اللفظ والمعنى، التي عُدَّت من أكبر القضايا التي اهتمت بها نظرية النظم عند الجرجاني.

ويرى أبو بكر الباقلاني (ت403) أن كتاب الله معجز بالنظم، لأن نظمه خارج عن جميع وجوه النظم المعتادة في كلام العرب<sup>21</sup>، والملاحظ أن الباقلاني لا يربط النظم بقضايا النحو، بل يرجعه إلى اختلاف أسلوب القرآن الكريم عن باقي أساليب كلام العرب.

ونصل إلى محطة القاضي عبد الجبار (ت415) الذي تعد إسهاماته في نظرية النظم الأقرب لما جاء به عبد القاهر الجرجاني من بعده، إذ جاء بمصطلح (الضم)، الذي يصرح به في قوله: " أعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلم، وإنما

تظهر في الكلم بالضم على طريقة مخصوصة<sup>22</sup>؛ وقد لا يخفى على متلقي هذا القول تداخل الدلالات التي يحملها مصطلح (الضم) مع مصطلح (النظم)، وارتباطهما بالتأليف والضم والتنسيق والاتساق.

ويخصص لنا عثمان انجوغو تياو أهمية قضية الإعجاز في بلورة نظرية النظم، وينظر إلى هذه الأهمية من زاوية بلاغية، يقول: "قام الصراع بين أسلوب القرآن وفكرة الصرفة حول مسألة الإعجاز ما بين مؤيد لرأي ظهير له، ومعارض لرأي مفند له، مما أدى إلى نشأة علم البلاغة الذي ما لبث أن تطور وازدهر بفضل التأليف التي توالى وضعها من عالم لعالم، وعصر تلو الآخر لحسر اللثام عن حقيقة إعجاز القرآن وتبيان وجوهه؛ ولقد انتهت هذه الجهود المتعاضدة المستمرة إلى أن توتى أكلها وتبلغ ثمرة حصاها بإنتاج أهم نظرية في تاريخ علم البلاغة، والتي تبلورت في نهاية المطاف بين يدي شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني<sup>23</sup>، فهي جهود تتوالى يفضي بعضها إلى بعض، ويتلفف ثمراتها عالم من بعد عالم، ثم تجتمع لتشكل نظرية النظم ولتحسم القضية في مسألة الإعجاز ومن ورائها قضية اللفظ والمعنى.

وقد يكون فيما أورده عبد الله نايف عنبر في مقدمة بحثه العلمي (نظرية النظم عند العرب في ضوء مناهج التحليل اللساني الحديث) تأكيد على أن نظرية النظم اكتمل تأسيسها على يد عبد القاهر الجرجاني من جهة، ومن جهة أخرى تظهر جهود سابقه في التمهيد لها والإشارة إليها، يقول: "وتكشف النظرة المتأنية أن (النظم) نظرية قائمة بذاتها، تتكون من عناصر تركيبية جمالية لها مكانها البلاغي والنحوي وملامحها الخاصة، وقد نمت هذه الظاهرة على صورة جهد إنساني متصل، كان بذرة، ثم ترسخت قواعده عبر القرون، وتدرجت عبر آراء السابقين من النحاة

والبلاغيين والنقاد في خطوات مهدت لنظرية النظم الجرجانية<sup>24</sup>؛ وحينئذ ذلك إلى استعراض النظرية عند مؤسسها عبد القاهر الجرجاني.

### 2.3 . النظم عند الجرجاني:

مما لا شك فيه أن عبد القاهر الجرجاني استفاد من جهود سابقه في وضعه لنظرية واضحة المعالم مكتملة الأركان، وهو ما جعلها قبلة لكثير من الدارسين طيلة عصور من الزمن، بل ولا يزال البحث فيها مستمرا، يحل محتواها تارة، ويقارن بينها وبين ما توصل إليه الدرس اللساني الحديث تارة أخرى.

لعل متلقي كتاب (دلائل الإعجاز) يستوقفه ما أورده عبد القاهر في مبحثه المعنون بسبب تأليف دلائل الإعجاز، إذ يستقي هذا المتلقي أهمية الفصاحة والبلاغة في تفضيل بعض الكلام على بعضه، وتفضيل بعض النظم على غيره، وصولا إلى تحقق الإعجاز الذي هو القصد من الكتاب في جوهره، يقول: "وأن سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها، وأنه كما يفضل هناك النظمَ النظمَ، والتأليفُ التأليفَ، والنسجُ النسجَ والصياغةُ الصياغةَ، ثم يعظم الفضل وتكثر المزية حتى يفوق الشيء نظيره والمجانس له درجات كثيرة، وحتى تتفاوت القيم التفاوت الشديد، كذلك يفضل بعض الكلام بعضا، ويتقدم منه الشيءُ الشيءَ [...] حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع، وتحسر الظنون، وتسقط القوى، وتستوي الأقدام في عجز"<sup>25</sup>؛ ليكون المغزى من البلاغة والفصاحة ومعاني النحو تحقق التميز والتفرد والإعجاز.

ومما يميز النظم عند الجرجاني عن سابقه هو أثر لمسته النحوية التي عرف بها الجرجاني النظرية، حيث تظهر نزعة النحوية جليا من خلال تعاريفه السابقة للنظم التي يقول فيها: "النظم أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو"<sup>26</sup>، وقال عنه أيضا (أي النظم): "ليس شيئا غير توخي معاني النحو"<sup>27</sup>، وهو

ما ذهب إليه في أكثر من موضع في كتابه (دلائل الإعجاز)، الذي يعد المكان الذي أفرغ فيه عبد القاهر كل جهوده وأسس فيه لنظرية النظم، بل ويردّ في كثير من فصوله على خصومه من المعتزلة الذين خالفهم في الكثير من القضايا.

وكان من بين هاته القضايا قضية اللفظ والمعنى، التي يرى فيها الجرجاني أن لا معنى للألفاظ ما لم يضم بعضها إلى بعض، فيقول: "إن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها من فوائد"<sup>28</sup>، وقال في موضع آخر: "واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك"<sup>29</sup>؛ إذن فترتيب الألفاظ عند الجرجاني يأتي بعد ترتيب المعاني في النفس.

والمتتبع لكتاب (دلائل الإعجاز) يرى أن الجرجاني أفرد فصولا يشرح فيها نظرية النظم التي يرى أنها السر الذي يكمن وراء إعجاز القرآن الكريم، ويطبقها على أكثر النصوص شرحا وتعليلًا، يرد بها على بعض ما وجده في الساحة اللغوية آنذاك من آراء أنصار الصرفة، ويحسم بنظريته الخلاف في قضية اللفظ والمعنى التي شغلت النقاد قبله والمعاصرين له.

#### 4. تلقي نظرية النظم في الدراسات العربية الحديثة:

إن المتتبع لحضور نظرية النظم منذ أن اكتمل تأسيسها على يد عبد القاهر الجرجاني في المنجز اللغوي والبلاغي والنقدي العربي الحديث يلحظ مدى إسهام هذه النظرية في إثراء بحوث الدارسين العرب مشاركة ومغاربة، كما يلحظ تنوعا في أشكال تلقّيهم لها من خلال تمظهراتها في بحوثهم - أو في جزء منها- تنظيرا وممارسة ومقارنة.

#### 1.4 - نظرية النظم - التعريف والتأصيل:

اكتفى بعض الدارسين العرب المحدثين بالتأصيل التاريخي للنظرية تعريفًا بها وتتبعًا لنشأتها، ومن هؤلاء نذكر درويش الجندي في كتابه (نظرية عبد القاهر في النظم)<sup>30</sup> حين ربطها بتاريخية قضية الإعجاز وبقضية اللفظ والمعنى ومعاني النحو؛ وخصّ بدوي طبانة في كتابه (البيان العربي)<sup>31</sup> الحديث عن إسهامات الجرجاني في البلاغة العربية من زاوية مثلت حلقة من حلقات التطور أو التغيير الذي عرفته هذه العلوم، وحمل العنوان الفرعي لكتابه (دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية) منهجه التاريخي التأصيلي.

وقد اشترك معهما في التناول التاريخي للنظرية إحسان عباس في وقوفه في كتابه (تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري)<sup>32</sup> على جهود عبد القاهر النقدية مركزًا على نظرية النظم وموقفه من الإعجاز واللفظ والمعنى؛ وشغلت نظرية النظم وصاحبها الجرجاني حيزًا كبيرًا من كتاب السيد أحمد خليل (المدخل إلى دراسة البلاغة العربية).

وقد نكتفي في هذا الشكل من التلقي التاريخي التأصيلي بكتاب حاتم الضامن (نظرية النظم تاريخ وتطور)، إذ لا يخفى على متلقي هذا المؤلف هيمنة المنهج التاريخي عليها من خلال استعراض الكاتب للجهود قبل الجرجاني وتتبع معاني النظم في المنجز التراثي العربي وربطه في كثير من مواطن الإعجاز ومباحث البلاغة العربية.

#### 2.4 - نظرية النظم - المزوجة بين التأصيل والممارسة:

ويفصي بنا الشكل الثاني من تلقي النظرية المتمثل في ربطها (النظرية) بمباحث البلاغة خاصة علمي البيان والمعاني أو بعض مباحث النحو أو المزج بين التأصيل للنظرية والممارسة إلى مجموعة من البحوث العلمية نذكر منها بحث عطية أحمد أبو الهيجاء (التشبيه عند عبد القاهر الجرجاني بوصفه معيارًا نقديًا)<sup>33</sup>، والذي

حاول من خلاله أن يظهر كيف نقل عبد القاهر التشبيه من الخصوصية البلاغية إلى أن يكون معيارا نقديا محققا بذلك الجانب الفكري.

ولا يبتعد زهير بختي دحمور في كتابه (نظرية النظم قراءة في مشروع عبد القاهر الجرجاني)<sup>34</sup>، إذ بحث في النظرية من زاوية علاقتها بالنقد الأدبي ومدى استفادة النقد الحديث من نظرية تراثية؛ وسعى وليد محمد مراد في كتابه (نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية) إلى تطبيق مقولات نظرية النظم على درس اللغوي منتقلا من التعريف بالنظرية إلى الممارسة والإجراء.

وألف أحمد شامية كتابه (خصائص العربية والإعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية) في سياق حديثه عن علاقة النحو بالبلاغة، وحدد فيه المجال الذي تدور حوله نظرية النظم والقضايا التي تتعلق بها، فيقول في موضع من كتابه موضعا تلك العلاقة: " تدور نظرية الجرجاني اللغوية بشكل [أساس] حول قضية النظم وتتعلم بهذا المحور [الأساس] قضايا منها: اللفظ والمعنى، والفصاحة والبلاغة، اللغة والتفكير، والنحو والبلاغة"<sup>35</sup>.

ومن الدراسات الجزائرية الممثلة لهذا الشكل بحث فاطمة الزهراء نهمار (الأسس الجرجانية لنظرية النظم)<sup>36</sup>، والذي زاوجت فيه بين نظرية النظم والنحو العربي وعلم المعاني؛ وخلصت فاطمة الزهراء نايلي في بحثها (حدود المصطلح الدلالي في درس البلاغي العربي من خلال كتاب: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني)<sup>37</sup>، وهي تربط بين نظرية النظم في جانبها البلاغي ومباحث علم الدلالة إلى عدّ الجرجاني "مؤسسا لنظرية (معنى المعنى) التي تدرس العلاقات الداخلية بين الوحدات اللغوية داخل السياقات التركيبية المختلفة، وقد تبلورت عن نظرية النظم التي لا تزال مرجعا لكثير من الدراسات اللسانية والدلالية الحديثة. كما اهتم بثنائية اللفظ والمعنى، وعدّها جوهر العملية الدلالية"<sup>38</sup>.

يتناول مسعود بودوخة في كتابه (نظرية النظم أصولها وتطبيقاتها) النظرية حيث أصولها وجذورها ونشأتها ومن ثم تطبيقاتها، ويعلن المؤلف عن القصد من وراء تأليفه كتابه في مقدمته، إذ يقول: "فهذه مباحث في شرح نظرية النظم التي وضع أصولها وشرح مبادئها عبد القاهر الجرجاني"<sup>39</sup>، ميرزا أهمية نظرية النظم التي تجتمع عليها عدة علوم كالإعجاز والبلاغة والنقد وعلم الكلام، ويزوج الباحث بين التأصيل للنظرية وتتبع نشأتها وصولاً إلى مؤسسها عبد القاهر الجرجاني وبين الممارسة التطبيقية.

### 3.4 - نظرية النظم - المقارنة بالفروع اللسانية واللغوية:

واختار فريق ثالث المقارنة منها جلياً من خلال استحضار النظرية في تأصيله لكثير من الفروع اللسانية والنحوية الغربية الحديثة مثل نحو النص والنحو الوظيفي والتداولية والحجاج وغيرها من الفروع؛ من بين هذه الدراسات نجد جار الله حسين دلخوش الذي تعرض لقضية الإعجاز ونظرية النظم في كتابه (الثنائيات المتغايرة في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني دراسة دلالية)، محاولاً الربط بين منابع الفكر اللغوي الأصيل والدرس الأسني كما قال في مقدمة كتابه، بغية الموازنة والمقارنة والوقوف على جوانب الحداثة والجدة في دراسة الجرجاني، كما ركز البحث على النظرية التوليدية التحويلية في تناول أفكار الجرجاني وتحليلاته وتعليقاته لوجود كثير من وجوه التشابه بينهما، حيث يرى أن النظم هو نقطة التقاء النحو بالبلاغة، فيقول: " وقد حدد الجرجاني النظم بدءاً، وجعله نقطة التقاء النحو بالبلاغة"<sup>40</sup>، كما ذهب إلى أن مصطلح التعليق الذي جاء به الجرجاني هو ما ذهب إليه دي سوسير، الذي يؤكد أن اللغة كتلة عناصر متماسكة، ويرى جار الله حسين أن الجرجاني بنى نظريته على مقياسين أساسيين هما: مقياس (الاختيار والانتقاء) ومقياس (التنظيم والتركيب)، هاذان المقياسان يتفق معهما الألسنيون الذين يرون أن

لا وجود للعنصر اللغوي إلا من خلال العلاقات التي يقيمها مع غيره من العناصر، وهكذا اعتمد في كتابه على البحث في باقي المتشابهات بين ما جاء به الجرجاني وما توصل إليه درس اللساني الحديث.

ومن الدراسات الحديثة أيضا نجد خالد حميد صبري في كتابه (اللسانيات النصية في الدراسات العربية الحديثة: بحث في الأطر المنهجية والنظرية)، أين تطرق إلى نظرية النظم في سياق الجذور النحوية والبلاغية من خلال مبحثه في اللسانيات النصية والتراث العربي، متحدثا عن جهود لسانيي النص الذين حاولوا الربط الجملي بنظرية النظم التي أسسها عبد القاهر الجرجاني.

ولا يبتعد حافظ إسماعيل علوي وامحمد الملاح في دراستهما الحديثة (قضايا إستمولوجية في اللسانيات) عن نهج سابقهما في ربط نظرية النظم التراثية المتجددة بالعلوم اللغوية واللسانية الغربية المعاصر، وقد خصصا مبحثا لنظرية عبد القاهر الجرجاني حلا فيه آراء أحمد العلمي المرتبطة بالجرجاني في كتابه (الطبيعة والتمثال مسائل عن الإسلام والمعرفة)، وقد أكدا في موضع من دراستهما أن عبد القاهر الجرجاني يجعل " للظواهر اللغوية المختلفة نظرية نظمية توحيدها، ومن ثمة يسلك نهجا مخالفا لنهج المتأخرين من اللغويين والبلاغيين الذين حاولوا أن يوحدوا دراسات القدماء تحت راية الموضوع اللغوي العام، ولكنهم ظلوا يفصلون بين خاناته تحت راية النوعية والموضوعية"<sup>41</sup>، ليتفرد الجرجاني بفكرة التوازي بين اللغة والفكر.

ومن الدراسات الجزائرية الحديثة ما كتبه عبد الرحمن الحاج صالح عن النظم في باب من كتابه (الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية) سماه (باب اللفظ والمعنى)، أين يؤدي تحول اللفظ إلى تحول المعنى في الاستعمال وخصوصية كل منهما، ورأى أن ما يقصده الجرجاني بالنظم: "هو ما ينتظم عليه الكلام بطرق كثيرة جدا مما يجيزه النحو"<sup>42</sup>.



وتقارن فاطمة الزهراء نايلي في بحثها (المصطلح اللساني عند عبد القاهر الجرجاني من خلال كتابه دلائل الإعجاز دراسة في ضوء النظريات اللسانية الحديثة)<sup>43</sup> بين ما أورده الجرجاني خاصة ما تعلق بنظرية النظم وآراء تشوميسكي في التداولية والتحويلية؛ ولا تتبعد الباحثة نفيسة طيب في بحثها (البنية الحجاجية في النثر العباسي تناول تداولي لكتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني) عن الدرس التداولي الغربي وهي تقارن بينه وبين ما انتهى إليه عبد القاهر في كتابه (دلائل الإعجاز).

وتتقصى مليكة النوي حضور مباحث اللسانيات الغربية في كتاب (دلائل الإعجاز) من خلال مصطلحات لسانية غربية مثل: الدال والمدلول والاعتباطية والبنى السطحية والعميقة وغيرها من الإجراءات اللسانية مستندة إلى نظرية النظم؛ ويجسد الباحث محمد خليفاتي في بحثه (إبداعية اللغة بين عبد القاهر الجرجاني والنقاد الإنجليز) هذا الشكل الأخير من التلقي بصورة جلية، إذ حاول استعراض نقاط التقاطع بين نظرية النظم التراثية المتجددة والدرس النقدي الإنجليزي خاصة في قضية اللفظ والمعنى والمبدع والعملية الإبداعية.

وقد تطول قائمة البحوث الجزائرية -وهو الحال نفسه مع البحوث العربية الحديثة الأخرى- التي تناولت نظرية النظم تأصيلاً وتعريفًا وممارسة وتطبيقًا ومقارنة.

## 5. خاتمة:

ونخلص بعد تتبعنا لمفهوم نظرية النظم ونشأتها واكتمالها بجهود عبد القاهر الجرجاني ومن سبقوه من البلاغيين واستعراض أشكال تلقي العرب لها إلى النتائج التالية:

\* - اشترك مفهوم مصطلح (النظم) من حيث التحديد والضبط مع غيره من المصطلحات التي اختلف الدارسون حولها، بسبب اختلاف مرجعياتهم وتعدد منطلقاتهم، وتداخل المصطلح مع جملة من العلوم اللغوية والبلاغية ومع مباحث النقد الأدبي، يضاف إليها محاولات إيجاد نقاط التقاطع بينها وبين العلوم اللغوية واللسانية الحديثة.

\* - أكد معظم الدارسين الذي تناولوا نظرية النظم سواء من جانبها التاريخي، أو من خلال ربطها بعلوم اللغة أو البلاغة أو النقد أن عبد القاهر الجرجاني هم مؤسس النظرية قصد إليها قصدا بخلاف إشارات سابقه من الأعلام اللغويين والبلاغيين العرب القدماء.

\* - تظهر تلقي نظرية النظم في الدراسات اللغوية العربية الحديثة في أشكال ثلاثة: أولها التعريف بالنظرية والتأصيل التاريخي لها، وثانيها تطبيق ما حوته النظرية من إجراءات على مباحث النحو والبلاغة والعروض والنقد الأدبي كما أسس لها علماء اللغة والنقد العرب القدماء، مع المزاجية بين التعريف والتأصيل من جهة وبين تطبيق أصول النظرية ومبادئها من جهة أخرى، وآخرها دراسة النظرية على ضوء الدراسات اللسانية واللغوية الغربية الحديثة باعتماد المقارنة والتقابل.

## 5. المراجع

<sup>11</sup> الشريف الجرجاني: معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2004، ص203.

<sup>2</sup> نفسه، ص203.

<sup>3</sup> عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2000، ص4.

<sup>4</sup> نفسه، ص392.

<sup>5</sup> نفسه، ص454.

- <sup>6</sup> نفسه، ص34.
- <sup>7</sup> إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب: نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الثقافة، بيروت، ط4، 1983، ص 420.
- <sup>8</sup> نفسه، ص 420.
- <sup>9</sup> محمد مندور: في الميزان الجديد، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ط1، 2020، ص165.
- <sup>10</sup> صالح بلعيد: نظرية النظم، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2001، ص92.
- <sup>11</sup> السيد أحمد خليل: المدخل إلى الدراسة البلاغية، دار النهضة العربية للنشر والطباعة، بيروت، ط1، 1968، ص175.
- <sup>12</sup> وليد محمد مراد: في كتابه نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، ص56.
- <sup>13</sup> نفسه، ص56.
- <sup>14</sup> من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: حاتم الضمن: نظرية النظم تاريخ وتطور، ص5-6. وليد محمد مراد: نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، ص56. محمد جاسم عباس الحسيني: عبد القاهر الجرجاني النحوي البلاغي (دراسة في ضوء نظرية النظم الجرجانية)، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، مجلد27، العدد4، 2019، ص45.
- <sup>15</sup> حاتم الضامن: نظرية النظم تاريخ وتطور، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، طبعة أيلول 1979، ص6.
- <sup>16</sup> وليد محمد مراد: نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند الجرجاني، ص57.
- <sup>17</sup> ابن المقفع: الأدب الصغير والأدب الكبير، تحقيق ودراسة إنعام فوال، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1999، ص 17.
- <sup>18</sup> وليد محمد مراد: نظرية النظم، ص58.
- <sup>19</sup> أبو الحسن الرماني: النكت في إعجاز القرآن الكريم، تصحيح عبد العليم، مكتبة الجامعة الملوية الإسلامية، دهلي، 1934، ص27.

- <sup>20</sup> الرماني. الخطابى. عبد القاهر الجرجاني: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط3، 1976، ص14.
- <sup>21</sup> حاتم الضامن: نظرية النظم تطور وتاريخ، ص19.
- <sup>22</sup> القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق أمين الخولي، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1960، ج16، ص199.
- <sup>23</sup> عثمان انجوغو تياو: نظرية النظم وقضية الإعجاز في علم البلاغة، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد 17، 2017، ص151.
- <sup>24</sup> عبد الله نايف عنبر: نظرية النظم عند العرب في ضوء مناهج التحليل اللساني الحديث، مخطوط رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 1991، ص5.
- <sup>25</sup> عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ص:283
- <sup>26</sup> نفسه، ص283.
- <sup>27</sup> نفسه، ص 391.
- <sup>28</sup> نفسه، ص287.
- <sup>29</sup> نفسه، ص48.
- <sup>30</sup> درويش الجندي: نظرية عبد القاهر في النظم، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط1، 1960.
- <sup>31</sup> بدوي طبانة: البيان العربي (دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2، 1958.
- <sup>32</sup> إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري)، دار الثقافة بيروت، ط4، 1983.
- <sup>33</sup> أحمد أبو الهيجاء: التشبيه عند عبد القاهر الجرجاني بوصفه معياراً نقدياً، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد1، المجلد 42، يوليو-سبتمبر 2013.
- <sup>34</sup> يبتعد زهير بختي دحمور: نظرية النظم قراءة في مشروع عبد القاهر الجرجاني، منشورات زخة الشهب، نسخة إلكترونية، ط1، 2019.
- <sup>35</sup> أحمد شامية: خصائص اللغة العربية والإعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1995، ص127.

- <sup>36</sup> فاطمة الزهراء نهمار: الأسس الجرجانية لنظرية النظم، مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة البليدة، 2، الجزائر، مجلد6، العدد1، ماي 2015.
- <sup>37</sup> فاطمة الزهراء نايلي: حدود المصطلح الدلالي في الدرس البلاغي العربي من خلال كتاب: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني.
- <sup>38</sup> نفسه، ص80.
- <sup>39</sup> مسعود بودوخة: نظرية النظم أصولها وتطبيقاتها، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، ط1، 2018، ص7.
- <sup>40</sup> جار الله حسين دلخوش: الثنائيات المتغايرة في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، دار دجلة، ص17.
- <sup>41</sup> حافظ إسماعيلي العلوي. امحمد الملاح: قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ط1، 2009، ص228.
- <sup>42</sup> عبد الرحمن الحاج صالح: الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ط1، 2012 ص123.
- <sup>43</sup> نايلي: المصطلح اللساني عند عبد القاهر الجرجاني من خلال كتابه دلائل الإعجاز دراسة في ضوء النظريات اللسانية الحديثة، مجلة دراسات لسانية، جامعة البليدة، 2، مجلد2، العدد9، 2018.